لغة التصاحب المعجمي بين الرجل والمرأة في آيات القران الكريم وأثرها الاجتماعي

الباحث علاء يسر عصمان

جامعة ميسان – كلية التربية – قسم اللغة العربية

أ.م. د. عباس إسماعيل سيلان

جامعة واسط – كلية الآداب

language of lexical association between a men and a women in the verses of the noble Qur'an and its social impact .

Alaa Yusr Osman: University of Maysan– Faculty of education Department of Arabic language

Assistant Professor Dr. Abbas Ismail Silan: University of wasit – college of arts

الملخص :

يدرس البحث علاقة التصاحب المعجمي بين الرجل والمرأة في آيات القران الكريم ، فوجود الرجل لجانب المرأة في كثير من المواضع القرآنية يحكي في سياقها ضرورة أهمية وجود المرأة مع الرجل اجتماعيا ، حيث أنتج تصاحبهما نتائج ثقافية على المستوى الشخصي ، وعلى طباعهما في الحياة العامة ، وان هذا التصاحب ورد ضمن سياقات حفظ للمرأة كرامتها ، وعفتها ، دون ان نجد أية دعوة للانفتاح المطلق

، وان هذا التواجد لم يكن إلا لبيان احترام مبدأ المساواة في تكوينيهما الإنساني والاجتماعي ، وان الاختلافات الفسيولوجية كانت سببا في وضع وتوزيع الأدوار الاجتماعية في العمل بينهما .

Summary:

The research studies the relationship of laxical association between men and women in the verses ot the noble quran .

The presence ot the man on the side ot the woman in many quranic plases tells in its context the necessity ot the importance ot the womans presence with the man socially , is he produced cultural results that accompany them on the personal level , and on their character in public lite , and that thas accompaniment came withim contexts of preserving womens dignity and chastity , without finding any call for absolute openness , and that thas presence was only to demonstrate respect for the principle of equality in their human and social formation , and that physiological differences were a reason for setting and distributing social roles at work between them.

المُصَاحبَات

توطئة :

ان أصل مادة (المصاحبة) التي تدل على معنى التلازم والاقتران بين شيئين يعود الى مادة (ص.ح.ب) التي يقول عنها ابن فارس أنها أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربته من ذلك الصاحب[١] ، هذا من ناحية اللغة ، أما المصاحبة في الاصطلاح فهي ارتباط اعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة دون غيرها[٢] .

ويذكر الدكتور محمد حلمي بأنها عبارة عن تجمعات معجمية لكلمتين أو أكثر جرت العادة على تلازمها وتكرار حدوثها وترابطها دلاليًا[٣] .

والمصاحبة اللغوية تهدف لدراسة الكلمة في شكلها الأفقي ، فالكلمة تدرس على مستويين[٤] **أولـــهما** : العلاقات الأفقية (syntagmatic relations) : ونقصد بها : علاقة عنصر لغوي بعناصر أخرى في السياق[٥] .

وثانيــهما : العلاقات الرأسية أو الاستبدالية paradigmatic relations " : ونعني بها ان الكلمة يمكن ان تحل محلها أخرى[٦] ، ويتضح ذلك بقولنا : (الكتاب في المكتبة) فالعلاقة بين (الكتاب) و (المكتبة) علاقة أفقية ، أما إذا قلنا : (المجلة في المكتبة) فهنا العلاقة بين (الكتاب والمجلة) في المثالين السابقين علاقة استبدالية أو رأسية[٧] ، من حيث كون الكتاب والمجلة غير عاقلينِ ومقروئينِ ؛ لذا يُمكن استبدال احدهمُا بالآخر ؛ لانتمائهما الى مجال أو حقل دلالي واحد ، أما علاقتهما بالمكتبة فهي علاقة (تلازم لفظي) ، كما أشار لها الدكتور محمد حلمي ، فالمصاحبة تدخل في دراسة العلاقات الأفقية إذ يقع التصاحب بين الكلمات المتجاورة أو المتباعدة في السياق الواحد[٨] ، وقد أشار اللغويون المحدثون العرب لهذا المصطلح بمسميات متعددة بسبب اختلاف الترجمة ، فأطلقوا عليه عدة مصطلحات منها (التلازم ، الاقتران اللفظي ، الرصف والنظم ، التضام ، قيود التوارد ،الارتباط ....) ، وقد اهتم الدكتور تمام حسان بدراسة هذه الظاهرة بما أطلق عليه بالتضام وقال عنه : " هو ان يستلزم احد العنصرين التحليلين النحويين عنصرا آخر فيسمى التضام هذا التلازم ، أو يتنافى معه فلا يلتقي به ويسمى هذا التنافي "[٩]. ومن تعريف الدكتور تمام حسان أن هذه الظاهرة هي ظاهرة نحوية تجري على مستوى التركيب ، وكأنه على إيمان ان النحو لم يعد مقتصرا على الأبواب المذكورة والمعهودة وهو أمر يعزز في جعل النحو أكثر فاعلية بما يعرف بالنحو الوظيفي ، ويتبنى الباحث توسيع الأبواب النحوية بما يحقق التيسير للنحو وجعله أكثر ارتباك بالواقع الاجتماعي ، ومع ذلك فلا يخفى على القارئ انسياب ظاهرة التصاحب بالسياق فالعلاقة وطيدة بين السياق والتصاحب ، وهذا كان سببا رئيسا لأن يفرد الباحث دراسة لهذه الظاهرة في دراسته ، ويعاضد ذلك ان هذه الظاهرة تكشف بوضوح عن التمكين الاجتماعي للمرأة .

إن المصاحبة تدل على معنيين من معاني الاقترانات المعجمية الأول هو التلاؤم ، والثاني هو التضمين[١٠] .

ومن أسباب ارتباط الألفاظ فيما بينها هو سبب الملاءمة بين دلالات الكلمتين المتصاحبتين من جهة ، والواقع من جهة أخرى[١١] ، من ذلك نحو : بقرة صفراء ، ولا نقول خضراء ولا حمراء ، ومن الأسباب أيضا هو الاشتراك في السمات الدلالية ، نحو (مات ، ونفق ، وفنى) كلها تشترك في دلالة الانقطاع عن الحياة ، إلا أنّ السياق يجعل لفظ (مات) مستدعيا للإنسان ، ولفظ (نفق) ينسجم مع الدواب ، ولفظ (فنى) يتلاءم مع الزرع[١٢] ، ومن الأسباب كذلك هو شيوع الاستعمال ، كما يقال : انصهر الحديد ، ولا يقال انصهر الورق .

أما الخروج عن مقتضى المصاحبة المعجمية فيسمى بـــ (المفارقة المعجمية)[١٣] ، وهو ما أسميناه بـــ (عدم المصاحبة) في المبحث الثاني .

ويشير الدكتور احمد مختار عمر الى أنواع التصاحب[١٤] :

١ – التصاحب الحر (free combination) : وهو التصاحب الذي يتحقق حين يمكن ان تقع الكلمة بصحبة كلمات أخرى كثيرة ، ويمكن أن تستبدل بها غيرها في مواقع كثيرة ، ومثال لذلك كلمة (اصفرّ) فعلى الرغم من ارتباطها بكلمات معينة كـــ (الوجه ، الليمون ، الرمال ، ...) فإنها تأتي عادة وصفًا لكلمات غير محدودة.

٢ – التصاحب المنتظم (collocation) : فهو التّصاحب الذي يتحقق حين يلاحظ المعجمي تكرار التصاحب وعدم إمكانية إبدال جزء بجزء آخر أو إضافة شيء إليه ، ومثال لذلك قولنا : (السلام عليكم) إذ لا يمكن استبدال جزء من التصاحب بين (السلام) و (عليكم) بآخر من مثل قولنا : (عيد سعيد) أو (رمضان كريم) أو غيرها فلا يقال مثلا : (عيد كريم) أو (رمضان سعيد) أو (السلام كريم) أو (رمضان عليكم) ، ولا يسمح بتبادل الأوصاف.

وهذا مما نجده في قوله تعالى : ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (النساء : ٤) ، نجد عبارة ﴿كُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾، فقد ذهب بعض العلماء الى القول بترادف اللفظين ، فـــ (الهنيء) كل ما لا يلحق فيه مشقة وأصله في الطّعام[١٥] ، و(المريء) هو ما يحمد عاقبته[١٦] ، فالتّصاحب بين اللفظتين هو من نوع التصاحب المنتظم ، لتأثر الناس بالقرآن لما يحمله من بلاغة في (أكل الصدقات) وكما هو معلوم بأن الأموال لا تؤكل بل تنفق لأجل الأكل والشراب ، لكنها اصبحت مما يستشهد به الناس في جل أحاديثهم . ويلحظ في هذا التصاحب سريان ألفاظ بمنزلة المثل مع أن النص القرآني جاء من حدث يصدر من المرأة المتفضلة على زوجها، مما يعزز من المجتمع الإسلامي تلقف الخطاب القرآني الخاص بالنساء على انه خطاب مؤثر أخذ أثره في حياتنا العامة .

ومن أنواع المصاحبة ما عاد به اللغويون الى :

النـــوع الأول : الاقتران العادي : (usual collocation)[١٧] ، وهذا النوع يوجد كثيرًا في الكلام الاعتيادي[١٨] ، ومن مثل ذلك قولنا : (صهيل) ؛ إذ يتوقع المخاطب كلمة (الحصان) ، وقولنا : (كمامة) ؛ إذ يتوقع المخاطب فيروس (كورونا) .

النـــوع الثاني : الاقتران غير العادي : (un usual collocation)[١٩] ، وهذا النوع يكون موجودًا في بعض الأساليب الخاصة وعند بعض الكتاب[٢٠] ، وهو غير متوقع لدى السامع؛ لأنه يرتبط بخصوصية

النص ومبدعه[٢١] ، وهذا النوع له أهميته في الأدب ؛ لبلاغته ، وتأثيره ، وقد يظهر فيه أحيانا خرق لقواعد الاختيار من طريق المجاز ، فإذا توافقت الوحدة المعجمية مع ما يجاورها ، وصف الكلام بالاستقامة ، وإذا لم تتوافق وصف الكلام بـ "الشذوذ الدلالي"[٢٢] ، وان كسر تلك القواعد لا يكون في كل الأحوال زائفًا أو مرفوضًا فالفعل (حطم) لا يأتي عادة في تركيب اسمي يحمل ملمحا دلاليًّا معينًا ، كأن يكون مجال (+حيوان) ومع ذلك يمكن قبول التعبير : حطم الحادث سائق السيارة[٢٣] ، وان كثيرا ما ينتج لنا كسر القيود تركيبات مجازية تجعل التعبير أكثر بلاغة إذ يصبح فيه من الحيوية والإشراق شيء لافت للنظر ، يسترعي الانتباه مع تأثير فعال في المتلقي ، خصوصًا عندما يكون المجاز جديدًا غير مطروق من ذي قبل ، فيولد دهشةً اكبر ، واهتمامًا أكثر، كما في قولنا : (التهمت في الأمس خمسة كتب) و (ابتسمت الأغصان)[٢٤] ، وهو المعنى الذي أشار له ابن الأثير من قبل فيما يثيره المجاز في النفس ، إذ يجد المتلقي عند سماعه نشوة حتى إذا انقطع عنه ذلك الكلام أفاق منها[٢٥] .

وسيذهب البحث الى تقسيم الدكتور احمد مختار عمر في تقسيم أنواع المصاحبة من تصاحب حر ، ومنتظم ، كما سيشير الى عدم التصاحب بينهما بحسب سياقات محددة :

الأول : التصاحب : على نوعين :

١ – التصاحـب الحـر:

ونجده في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء : ١٩) ، فلما نهى الله (ﷻ) عن عادات أهل الجاهلية في أمور كثيرة جاء بنهي معنوي وهو نكاح النساء كرهًا ، أو طمعًا في ميراثهن بعد موت أزواجهن ، فلهن الحقّ في ان يرثن أزواجهن ، ويتركن لشأنهن سواء أردن نكاحًا أم لا ، وقوله ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي لا تحبسوهن وتمنعوهن عن النكاح[٢٦] فالتصاحب الحاصل بين﴿بِفَاحِشَةٍ﴾ و﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ هو ما يعرف بـ (التصاحب الحر) ، ويمكن ان يكون من النوع المنتظم ، فالله (ﷻ) يريد من الرجل إلا يبني أحكامه على الشك أو النميمة والأقوال المغرضة ، خصوصا وان المجتمع لا يخلو من أحقاد الأعداء ، وهؤلاء يعمدون الى الإشاعة حقدا ، وعداء ، فمن هنا بني القرآن على مصاحبة ﴿فَاحِشَةٍ﴾ مع ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ ، فكلمة ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ تشير الى بيان واضح ، غير غامض ، وهذا دليل على ان العلاقة بين الرجل والمرأة يجب ان تكون علاقة رصينة ، مبنية على أساس الثقة واليقين ، وفي ذلك توجيه للمجتمع عامة ليكون مجتمعا يعتمد على الدليل والحجة الواضحة ، والثقة في التعامل ، واليقين من صحة ما يقال .

ويمكن ان نلمس بقوله تعالى تصاحبا آخر ومقاربا للأول بين ﴿عَاشِرُوهُنَّ﴾ مع ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وتصاحبا ثالثاً في ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فالقرآن هنا يعطينا معيارا غير الذي نعتمده

في تحديد الصواب ، فالخير يمكن ان يكون فيما نكره ، ليس فيما نحب ، فالجهاد فيه مخاطر كثيرة إلا ان الله (ﷻ) جعل فيه من الفضائل الأكثر ، ومن هنا جاء قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢١٦) ، حتى غدا الأمر من التصاحب المنتظم ، كما ان الآية لا يمكن فهم معناها إلا بتوظيف السياق المقامي .

وفي مصاحبة (ترثوا) للـ (النساء) ـ قال الله (ﷻ) (النساء) ولم يقل (البنات) تصاحب حر وبليغ ، أو اقتران غير عادي ؛ وذلك لكون الآية في سياقها تتحدث عن ميراث الأموال أي الميراث المادي ، فالسياق خرج باستعمال لفظة (ترثوا) الى معنى الميراث البشري ، غير الأموال ، لذا نشهد مولد عبارة جديدة تتجاوز الاستعمال الفردي الى الاستعمال العام[٢٧] ، فشيوع استعمال مفهوم الميراث عند أهل الجاهلية كان مغلوطًا للأشياء المادية و المجردة ، العاقلة و غير العاقلة ، وما كان حيا أو لم يكن ، وهو ما يسمى في التعبير الاصطلاحي بـ (المصطلح) وهو نمط التعبير الخاص بلغة محددة ، يتكون من كلمة أو أكثر تكون قد تحولت من معناها الحرفي الى معنى مغاير أطلقها عليه جماعة لغوية محددة[٢٨] ، وهذا ما كان شائعًا عند أهل الجاهلية في ان يرثوا الأشياء جميعها بلا اعتبار لتلك الأشياء حتى عدوا النساء من تلك الأشياء ، وما زالت هذه الحالة الاجتماعية المقيتة في تزويج الأرامل من إخوة أزواجهن كرهًا .

ويدرس البحث هذه الظاهرة لعلاقتها الوطيدة بالمستوى التّركيبي (النّحويّ) فيقوم بتسليط الضوء على التراكيب وما يرتبط بها من خواص كالإعراب[٢٩] ، والموقعية ، والارتباط الداخلي بين الوحدات المكونة للتركيب ، وما الى ذلك من أمور تخص نظم الكلام وتأليفه[٣٠] .

ومن المعلوم ان الوصول للمعنى هو غاية تهدف إليها الدراسة اللغوية لذا كان التفسير بالسياق الاجتماعي يمنح الكلمة معنى واقعيا عاشته دلالتها نطقا بين الناس[٣١] .

٢ – التصاحب المنتظم :

يرد التصاحب المنتظم بين الرجل والمرأة في كثير من الأحكام العبادية التي منها :

❖ **في الأحكام العبادية ، نحو : (الميراث ، الفرائض)**

أ – الميـراث :

الميراث حالة اجتماعية يختلف فيها كثير من أفراد المجتمع بسبب ابتعادهم عن الفهم الصحيح لقضايا الميراث ، والأولويات التي نص عليها الدين الإسلامي في تسلسل وترتيب الأهم والأقرب مكانة

عمن سواه في المجتمع الإسلامي ، والحديث عن الميراث في ضمن السياق القرآني في سور القرآن الكريم هو حديث عن الأمور المادية والمعنوية لا البشرية ، وهو من الإحكام العبادية الهامة .

ولا يقتصر استجلاء لغة التّمكين الاجتماعي للمرأة في آيات المرأة على البنية السطحية للنص لاحتوائها على أدوات التصاحب المعجمي[٣٢] ـ أدوات الربط ـ فحسب ، بل يفوق ذلك بالتماسك الذي يتحقق على مستوى البنية العميقة للنص بوساطة استقراء العلاقات والتصورات التي تعكسها الكلمات والجمل ، وان كان الأمر يحتاج الى قدرة معينة باعتماد ومناقشة ومقابلة أراء المفسرين في الاستخراج والوصف[٣٣] .

فالفعل (ورث) : هو ان يصير الشيء لقوم ثم يصير الى آخرين بنسب أو سبب[٣٤]، ومن أمثلة وروده قوله تعالى :﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ (النساء :من الآية ١١) ، وهنا تصاحب ذكر لفظ (الذكر) مع (الأنثى) لأمرين مهمين :

أولـــــهما : بيان أحقية الاثنين في قوله تعالى﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ .

وثانيـهما : انه جاء خطابا لأكثر من مجتمع للجاهليين آنذاك إذ منعوا المرأة من الميراث ، ولجاهليتنا المعاصرة إذ حجب ـ بعضهم ـ ذلك عنها ، وللغرب إذ جعلوا المرأة والرجل سواء في الميراث ، وهذا يدل على أنّ القرآن لكل زمان ومكان .

ان من ابرز الانتقادات التقليدية التي تطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة هي ما يفهمه بعض الرجال من قوله تعالى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ ، إذ يفهمونه قانونا عامًا ساريّا في أحكام الميراث وغيرها[٣٥] ، إلا انه ان قول الله (ﷻ) خطاب فيه تحديد لـ(نصيب) كل منهما عند الميراث فقط ، وان منح الذكر نصيب يعادل نصيب الأنثيين جاء من باب قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فالابن يتعرض لمسؤولية الإنفاق على أبويه في حال الكبر بالإضافة الى الإنفاق على زوجته وتقديم المهر إليها فالحاجة تتبين أكثر عند الابن من البنت إذ لا تتعرض لهذه المسؤولية ولا تتحمل شيئا مما ذكر، يقول صاحب كتاب المنار في هذه الآية أنها جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ، وان الله (ﷻ) أتى بها هنا لإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منعهم توريث النساء ، فكأنه جعل ارث الأنثى مقررا معروفا وهو الأول في ابتداء عملية توزيع الإرث ، بعد ذلك يكون للذكر مثله مرتين ، أو جعله هو الأصل في التشريع ، وجعل ارث الذكر محمولا عليه[٣٦] ، وهنا إيماء الى ان حظ الأنثى أهم من حظ الذكر ، حتى صار تقسيم المال باعتبار عدد البنين والبنات[٣٧] ، وان التصاحب الذي ورد في الآية هو بين لفظتي﴿لِلذَّكَرِ﴾ و ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾ هو تصاحب منتظم ومن نوع الاقتران العادي .

فبدأ الله (ﷻ) الوصية بالتوزيع العادل في الميراث لئلا يكون ظلم في حصة احدهم عن الآخر ، يبدأ الحديث بالأم ويتم التأكيد على الأم بوجود الأخوة أو عدم وجودهم فالآية تخصصت بذكر الأم دون الأب ، واكتفى بـ " تعريف نصيب الأب بدلالة التضمن بعد معرفة نصيب الأم "[٣٨] ، إلا أن كل ذلك التقديم والتفضيل جاء مسبوقاً بحقوق الزوجة مع أن حق الوالدين أعظم واشرف من حقوق الزوجة ، ولعل هذا التقديم يعزى الى التأكيد بدفع حقوق الأزواج ، من وجهة أخلاقية ، لتكريم فضلها ، ولمراعاة مصيرها ، ولتثمين صفتها بعدما آلت إليه حياتها ، فالزوجان يعيشان كل واحد منهما يتمم الآخر إلا أن الشريعة السمحاء تقرر أن يكون حق المرأة على الرجل في النفقة هو الحق الأول[٣٩] ، فالتقديم بالأنثى سواء كانت زوجة أو أم يشير الى تمكينها اجتماعيا في كل زمان ، وكان الخطاب مقدمًا لعالم الرجال لاحترام المفاهيم الإسلامية ، بإلزام تطبيقها ، للحد من بخس حقوق المرأة في عالم ذكوري متوهم باستعلاء جنسه ، أما في قوله تعالى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ فاختيارها هنا للتعبير بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء ، كما يقول صاحب كتاب (دلالات التقديم) بان تقديم الذكر على الأنثى في هذه الآية جاء من باب التفضيل المقيد وليس المطلق ، في جوانب وادوار تتناسب وماهيته[٤٠] ، وفي هذا المحور نرى قولًا مهمًا لصاحب تفسير التحرير والتنوير عن سر تقديم الذكر على الأنثى ، فهو يرى أن الله (ﷻ) جعل حظ الأنثى (المقدار) الذي يقاس عليه حظ الذكر ، ولم يكن في تقديمه أي أهمية في تحديد أو تعيين حظه بل قال الله (ﷻ) أن له مقدارا مثل المقدار الذي يعطى للأنثيين فمقداره يتحدد وفقا على ما تكسب الأنثيين ، بعدها يأتي تحديد مقداره من الميراث ، فعلم إن المراد بالآية هو تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثيين منهم ، حتى وان كان المراد بذلك بنحو آخر وهو أن للأنثى نصف حظ الذكر ، أو للأنثيين مثل حظ الذكر الواحد ، ولكن التعبير يحمل إيماءً الى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع مهما ؛ لأنها كانت مهضومة في هذا الجانب عند أهل الجاهلية ، ليأتي الإسلام منادياً بحظها في الحياة الاجتماعية[٤١] ، لذا نجد الإسلام يعدها وحدة قياس مهمة في سياسة الخلق بتوزيع الثروات ، وصيانة الحقوق ذكراناً وإناثاً .

بعدها جاء قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (النساء : ١٢) ، فمدار الحديث في السياق العام هو (المرأة) بشتى أنواعها سواء كانت أماً أو أختاً أو بنتاً أو زوجةً ، إلا ان التصاحب موجود بين الرجل بصفته زوجا وللمرأة بصفتها زوجة حتى بعد وفاة احدهما فالاقتران بين ﴿لَكُمْ﴾ التي يعود الضمير فيها على مجموعة الرجال جاء مع لفظة ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ ، ففي الآية المتقدمة يوضح اللهُ

(ﷺ) نصيبَ الورثة منطلقاً من وجود الزوجة أو عدمه ، وهذا الوجود يدل على عدم حرمانها مثلما كان يفعل الجاهليون ، فالخطاب الى من يتعالمون مع المرأة وتحديداً الأزواج الذين يرثون أزواجهم ، لهم النصف مما تركن ، أما إذا كان لهن ولد فله الربع ، وهكذا يكتمل تقسيم الميراث من بعدها بطريقة لا يجوز فيها لأحد أن يستحوذ على كل ما تركته ، وهنا تكمن أهمية علم المواريث والفرائض في ترسيخ لغة التمكين للمرأة في القرآن الكريم بوساطة المصاحبة التي وردت باستعمال لفظ (زوج) فضلا عما توحي إليه هذه اللفظة من المودة والرحمة بين الزوجين ، أما في قوله تعالى ﴿يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ولم يقل : ان لم يكن لهن (ابن) ؛ لأن الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة ، فالشيخ يمكن ان يقول للشاب يا بني ، كما يسمي الملك رعيته بالأبناء ، وهذا ما نجده في قولهم بنو آدم وبنو إسرائيل وغيرها ، كما يمكن ان يكنى الرجل بأبي فلان وان لم يكن له ولد من باب التعظيم[٤٢] . كذلك هنا نجد ملمحا يتعاضد مع الملمح الأول من التصاحب الذي حصل بين الزوجين ـ حتى بعد وفاة احدهما ـ مما آل إليه زواجهما من (ابن) لهما وما يعبر عنه ذلك الابن من متانة الأواصر التي ترفع من حجم قوة العلاقة الرابطة بينهما، وقوله تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء :من الآية ١٧٦) ، فبعد ان بيّن نصيب الأخت المنفردة ، ونصيب الأختين ، وما فوق اللتين أو اللاتي لا أخ معهما أو معهن ، بعدها بيّن حكم اجتماع الإخوة والأخوات بأنهم يقتسمون للذكر ضعفين مما يعطونه أولا للأنثى ، لضرورات اقتصادية بينها الشارع الإسلامي[٤٣] ، والتصاحب ورد بين لفظتي ﴿رِجَالًا﴾ و﴿نِسَاءً﴾ الذي تكرر بصورة كثيرة في السياق القرآني ، وصار على السنة العرب بالفطرة فلا يقول أحدهم نساء وذكور مثلاً ، أو أزواج وإناث ، وغيرها من الخروق اللغوية التي يمكن ان تؤثر في المعنى العام ، فالتلازم يحتم مجيء كلمة بصحبة أخرى[٤٤] ، على وجه الكثرة في الاستعمال حتى تصبح متداولة فيما إذا ذكر أحداهن تبادر في الذهن الأخرى أو صاحبتها .

و تتجلى المصاحبة أيضا بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء : ٣٢) ، والتصاحب في الآية يكمن في (نصيب للرجال) و (نصيب للنساء) التلازم الحاصل بين الرجال والنساء لم يكن للمفردة وحدها بل جاء مقترنا بكلمة نصيب لكل منهما وليس نصيبا واحدا لكليهما ، ويسمى التصاحب هنا (حراً) إذ يمكن استبدال الرجال بالنساء أمام كلمة﴿نَصِيبٌ﴾[٤٥] ، وان تكرار التركيب المتكون من الخبر (للرجال ، للنساء) و المتعلق بمحذوف ، و﴿نَصِيبٌ﴾المبتدأ المرفوع والمؤخر مرتين لم يكن إلا تحديداً وتخصيصاً وتوكيداً على ان لكل واحد منهما نصيبه مما كسبه ، ولعل سائلا يسأل ما النصيب ؟ فالجواب هو ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ و ﴿مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ ، فالمعنى ان لكل إنسان نتيجة

عمله ، ولا يحق له ان يشغل نفسه بحسد الآخرين ، لأنه يعود على صاحبه بالإثم في الدارين[٤٦] ، لذلك نشاهد التطابق بين المتصاحبين في التذكير ﴿اكْتَسَبُوا﴾ والتأنيث ﴿اكْتَسَبْنَ﴾ متحققة كذلك في عود الضمير (الواو) على جمع الرجل ، وعود الضمير (نون النسوة) على جمع المرأة ، والتطابق جاء بين العلامة الإعرابية لكل من الرجال والنساء بكونهما شبه جملة ، وبين كلمتي ﴿نَصِيبٌ﴾الخاصة بالرجال ، والثانية الخاصة بالنساء[٤٧] ، فكانت الملاءمة بين المتصاحبات شرطا أساسيا من شروط الاصطحاب بين طائفة مع أخرى[٤٨] ، وقد أدرك النحاة أهمية الملاءمة النحوية لما فيها من أثر دلالي في السياق .

ب ـ الفرائض :

● ـ المساواة والتفاضل بالتقوى :

ان كثيرا من الفرائض الدينية التي أوجبها الله تعالى نجد فيها مصاحبات معجمية في ضمن السياق القرآني ليس على مستوى المرأة بل في كثير من الألفاظ المتلازمة، كالذي في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات : ١٣) ، ان أصل الخلقة كان من الذكر والأنثى ، فيجب أن يعلم الناس أن الأب للذكر أو الأنثى هو آدم (عليه السلام) وان أمهما حواء (عليها السلام) ،﴿لِتَعَارَفُوا﴾أصلها لتتعارفوا[٤٩] ، فالآية تنبذ الاختلاف بشتى أنواعه سواء كان اختلافاً جنسياً أو قبلياً أو لونياً وغيرها، وهذا ما هو موجود الى يومنا هذا ، ففي الآية دعوة الى امة إنسانية واحدة وعالم يجمعه المودة والرحمة ، لذا جاء التصاحب من النوع المنتظم في قوله تعالى ﴿ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾فالتلازم بينهما لم يكن شيئا جديداً بل منذ ابتداء الخليقة .

ثم انه بين أن جعلنا منكم شعوبا ـ لكثرة تشعبات النسل من البشر ـ ، وقبائل هي ما دون الشعوب كربيعة ومضر وغيرها[٥٠] ، وفي المعنى نفسه نجد الحث على الالتزام بهذه الفريضة وهي العودة الى الله (عز وجل) ، إذ زجر الإسلام التفاخر في الأنساب ، في قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء : ١) ، قوله تعالى ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ ولعل السؤال يطرح في هذا الموضع إذ نعت الله (عز وجل) الرجال بالكثرة ولم ينعت النساء بذلك ؟ وان الذكورة هي العنصر الذي يفترض ان يكون اقل بكثير وهذا ما نشهده منذ ابتداء الخليقة الى اليوم ، وان الإناث لابد ان تكون أكثر[٥١] ، ولعله استغنى بوصف الأول الذي سيستدل بوساطته المخاطب على ان النساء في هذه الصفة كذلك[٥٢] ، وان تعريف النحاة للنعت وقولهم انه التابع المكمل لمتبوعه ببيان صفة من صفاته[٥٣] ،ليبين القرآن ان أصل الذكر ، وأصل الأنثى هي نفس واحدة وما اتفق المفسرون عليه في تفسير نفس واحدة هو آدم (عليه السلام) ثم قال وخلق منها زوجها وهنا المقصود بها حواء (عليها السلام)... وهنا يمكن القول ان التصاحب سوغ الحذف المحتمل في الآية وأعرب عن التلازم بيم الرجال والنساء .

●ـ العمل الصالح :

من أنواع المعاملات التي تجلت بشكل عام في التعبير القرآني ، ونادى بها الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) في بعثته هو العمل الصالح ، وان قوله تعالى :﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(غافر : ٤٠) ، خير تعبير يتجلى فيه فضل العمل الصالح لعامله ، وليس بالإمكان إدراك حجم اللطف الإلهي بالإنسان عموماً ، فبداية الآية نرى فيها إجمالاً بقوله﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾دون ان يفصل القول بمن عمله تلك السيئة وفي ذلك تنكير وان كانت في بداية الخطاب القرآني ، إلا ان فضل الله (ﷻ) ونعمته ورحمته تتجلى في التفصيل الوارد بقوله تعالى :﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، فالتصاحب المعجمي تكرر لدينا في أكثر من موضع ونحن نشهد اقتران الذكر مع الأنثى دليلا قاطعا على ان الله (ﷻ) لم يفرق يوما بين الذكر والأنثى ولم يفضل احدهما على الآخر إلا بتقواهما ، وذلك دليلٌ على وجود لغة التمكين للمرأة في القرآن الكريم ، بكون الأنثى لم ولن تقل شانا عن الرجل ، وان لكل منهما أثره في الحياة بما يتناسب وتركيبته الجسمية أو العقلية أو النفسية، إذ نشهد السياق ينظر مرة أخرى في سورة أخرى وبترغيب آخر يثير دهشة المتلقي بما يجزيه الله (ﷻ) لقاء ما يعمله بقوله تعالى :﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧) ،حيث يدل على معان متعددة منها تحديد مجال الكلمات الدلالي ، إذ تكتسب الكلمات دلالات أخرى عن طريق المصاحبة[٥٤] ، فما نشهده في سياق هذه الآية الكريمة ان العمل الصالح الذي يعمله الذكر أو الأنثى يجب ان يكون مقرونا بالإيمان بالله (ﷻ) ، فقد دلت هذه الآية على ترسيخ مسألتين مهمتين[٥٥] :

أولـــــها : ان الذكر والأنثى لا فرق بينهما إلا بالتقوى ، فإذا عملت الأنثى من الصالحات واتقت ربها ، وعصى هو ولم يتق ، فالقياس هنا ينتهي بنتيجة قربها لله (ﷻ) فهي أكرم عنده من العاصي .

ثانيـــــها : ان الإيمان مع العمل الصالح سبب للأجر والثواب ، أما ان يعمل صالحا وهو غير مؤمن فلا يستحق عندها نوال الله (ﷻ) وثوابه ، ولكن تبقى عدالة الله (ﷻ) فوق تصورات مفاهيم العدالة في قوانين جميع البشر فهي أسمى وأبهى من الحدية التي نراها تطبق على المتهمين بشيء ما .

فالتصاحب هنا حمل لنا دلالات مهمة في بيان فرائض الله (ﷻ) وتوضيحها ؛ لأنها أسهمت في تحديد معنى الكلمة بشكل أعمق وأوسع من النظرة المعجمية فقط[٥٦] ، يقول البركاوي : تكمن أهمية التحليل الرصفي في منح الألفاظ دلالات غير المعاني المعجمية ، لأنه يوقفنا على تجمعات ترد فيها كلمات تسهم في رسم صورة دلالية أكثر وضوحا من تلك المعجمية الفردية ، أو بعبارة أخرى معرفة السياقات اللغوية التي ترد فيها[٥٧] ، وهذا ما تجلى لنا في (الذكر المؤمن) و(الأنثى المؤمنة) .

ولا يمكن تضييق التصاحب بين لفظين فقط بل قد يمتد التصاحب الى ابعد من ان يكون بين مفردتين بل يتعدى ذلك الى تصاحب تركيبين كاملين كما في قوله تعالى :﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٧١)، وقد جاء بعدها ما أعده الله (ﷻ) لهم في قوله تعالى :﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التوبة:٧٢) ،وهذه جاءت بعد وصفه (ﷻ) لطائفة أخرى من الناس في قوله :﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(التوبة:٦٧)،وجاء بعدها وعده لهم بقوله تعالى :﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾(التوبة:٦٨) ،نلحظ المصاحبة في تركيب يحتوى على جنس الرجال وآخر يحتوى على جنس النساء بتقابل وتلازم نحوي فيه دقيق جدا ، وما يتناسب كل نوع من الموصوف الأول ، أو الموصوف الثاني ، فكان الابتداء بـ ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾في السورة ، ثم جاء بعد ذلك ذكر﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، وتقديم﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾على ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾لإثارة الخوف عند المتلقي في سورة كسورة التوبة ليتوب الله (ﷻ) على من يريد التوبة وهو يصور له ما أعده له بعدما ذكر المؤمنين والمؤمنات ، كما ان القرآن ابتدأ بصفة مقيتة لعلها واحدة من صفات كثيرة لدى غير المؤمن وهو المشرك ، وبيّن ما أعدّه الله (ﷻ) من نار جهنم يخلدون فيها ولعنة من الله(ﷻ) ، ثمعَذَابٌ ﴿مُقِيمٌ﴾بهيئة من هيئات التوكيد وهي تقديم الخبر ﴿وَلَهُمْ﴾على المبتدأ ﴿عَذَابٌ﴾والموصوف بـ﴿مُقِيمٌ﴾، ان التصاحب الذي حصل بين الخطابينِ جاء مناسباً وملائماً لكل واحد منهما ، فالمصاحبة بين ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾تقابل بشمولية وإجمال أعلى المصاحبة بين ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾أي بمجرد إيمانهم فهذا يكفي لما أعده الله (ﷻ) لهم من ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والخلود الذي فيها ، كذلك المصاحبة بين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾وبين﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ولم يقل عنهم ﴿أَوْلِيَاءُ﴾فسلب هذه اللفظة وما تحمله من معنى ليس خرقا للخطاب بقدر ما يحمل إيحاءً على معنى الضعف ، أي بعضهم من جملة بعض ، وبعضهم مضاف الى بعض ، في الاجتماع على النفاق والشرك ، كما تقول أنا من فلان وفلان مني ، أي أمرنا واحد وكلمتنا واحدة ، وقيل معناه بعضهم على دين بعض[٥٨] ، أما قوله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾فمعنى ذلك بعضهم أنصار لبعض[٥٩] ، كذلك المصاحبة بين ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾و التركيب الفعلي الآخر ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، وبين الجملة الفعلية الأخرى ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾و بين ﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، وهكذا ، أما المصاحبة في الآيتين الأُخرَيَيْنِ (الآية ٦٨ و ٧٢) فالتركيب الفعلي المتكون من الفعل ﴿وَعَدَ﴾والفاعل ﴿اللَّهُ﴾والمفعول به﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾والاسم المعطوف عليه ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾جاء مكررا في الآية الأخرى من الفعل والفاعل

والمفعول والاسم المعطوف ، فالاختلاف بين ما وعد الله (ﷻ) به المنافقين وما وعد به المؤمنين كاف لإبراز الترغيب والترهيب عن المتلقي ، بقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ .

❖ـ في الأحكام الاجتماعية ، نحو : (الزواج ، العقود)

أ ـ الزواج :

من سنن الله (ﷻ) هو الزواج ، وهو حالة طبيعية في البشر ، كما هو في سائر الإحياء الأخرى من النباتات ، والحيوانات ، ويكون بعد اكتمال الخصائص الأنثوية عند الفتاة أي بعد ان تكون امرأة مكتملة ليصلح زواجها ، أي بعد بلوغها ، كما يجب ان نلاحظ عليها الرشد العقلي ؛ لأن الزواج يهدف الى بناء أسرة مما يتطلب نضجا عقليا عند المرأة[٦٠] .

يرد التصاحب بين الزوجين في كثير من الآيات القرآنية والغاية من هذه المصاحبات الزوجية هي :

١– لئلا يشعر احدهما بالفضل على الآخر فهما زوجان يكمل احدهما الآخر ولكل منهما أثره في مهامه في الحياة .

٢– كيلا يحدث تبادل بالأدوار إذ لا يمكن للرجل القيام بمهام الأنثى كما لا يمكن للأنثى القيام بمهام الرجل .

٣– ليؤدي كل منهما وظائفه بإتقان وإبداع مبتغين بذلك مرضاة الله (ﷻ) .

ومن هذه السياقات قوله تعالى :﴿فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(طه:١١٧)،فنلحظ انه حتى في خطابات التحذير أو النصح و الإرشاد لم نجد خطابا لآدم (عليه السلام) دون زوجه ، فالله (ﷻ) يربط بحرف العطف (الواو) بين آدم (عليه السلام) وزوجه في بيانه لعداوة الشيطان التي يجب عليهما عدم الاستهانة بها وبمكره وما يمكن ان يفعله ، أما من يسال عن سبب ورود الفعل﴿تَشْقَى﴾بصيغة المفرد ولم يقل فتشقيا بصيغة التثنية ، فهذا لأن الكلام كان موجهًا لصاحب الأمر ، ولذلك نجد صيغة الإفراد تكررت في جميع الآيات التي تلت هذه الآية نحو قوله (لا تجوع فيها ولا تعرى ، لا تظمأ فيها ولا تضحى ، وغيرها) ولا يدل ذلك على ان الخطاب كان لآدم (عليه السلام) دون حواء (عليه السلام) لان بداية الآية عطف يكفي لرفع كل ذلك التساؤل من ذهن السائل[٦١] .

ب ـ العقود :

ومن أمثلة التصاحب ما نجده فيقوله تعالى :﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾(البقرة : من الآية ١٠٢) ، في الآية نشهد التوافق المعجمي بين ﴿الْمَرْءِ﴾و ﴿زَوْجِهِ﴾باختلاف نوع الخطاب ، إلا ان التوافق بين

الوحدتين المنفصلتين ينتج لنا مصاحبة معجمية ،والأمر كذلك في قوله تعالى :﴿يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(البقرة : من الآية ٣٥)

لتوضيح ذلك بمخطط سهمي كما يلي[٦٢] :

وحدة معجمية منفصلة	+	وحدة معجمية منفصلة	=	مصاحبة معجمية
↓		↓		↓
(المرء) ، (ادم)	+	(الزوجة) ، (زوجك)	=	(المرء وزوجه)،(أنت وزوجك)

الثاني : عدم التصاحب :

سبق كيف ان المرأة ومتعلقاتها جاءت مصاحبة للرجل ، مما عكس صورة مؤيدة ان المرأة تقف الى مصاف الرجل في أداء الواجبات ، ولها شان كشأنه ، وليست هي مهمشة ، بل تشاطره في التكاليف والقضايا ، وهذا يعرب عن مكانتها الاجتماعية المرموقة التي منحها إياها الإسلام ، ورأينا ان المتعلقات هي الأخرى عاضدت المسالة .

ولكن هل جاءت المرأة ملازمة للرجل في الآي القرآني ، أم قد يرد انفراد للرجل دونها ؟

وهل في هذا انتقاص لها ؟ أم ماذا ؟

الحقيقة ، انه قد ورد في الآي القرآني مجيء الخطاب للرجل دون المرأة ، ويمكن أن نعرف هذا بـ (عدم المصاحبة) ، وهو مجيء الألفاظ مفردة ، دون صاحبتها ، أي نجد الذكر ولا نجد الأنثى في بعض المواضع ، ويرى الباحث ان هذا لا يشكل انتقاصًا لسببين:

١ ـ إننا نجد أحيانا ورود الأنثى ، دون إيراد الذكر، وهذا لا يشكل انتقاصا للذكر ، فالمقام هو الذي استدعى ورود احد الطرفين دون الأخر .

٢ ـ ان ليس كل ذكر يعد مدحاً ، فأحيانا يورد الذكر دون الأنثى ، ولكن في موضع الذم ، على النحو من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء : ١٤٥) ، إذ جاء الحديث عن المنافقين ، ولم يعطف المنافقات عليه ولعل الأمر لأن النفاق يكون أكثر عندهم بسبب تفشيهم ، وخروجهم في المجتمع ، فلهم أكثر من مكان حساس يتنفذون به ، سواء أكان في محافل الحرب أو السياسة ، أو التجارة ، أو القضايا المؤثرة في المجتمع .

ومن أمثلة انفراد المرأة دون الرجل ما نجده في قوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور : ٣١) ، فهنا أتى بالنساء دون الرجال وما في هذا من ضير على الرجل ، والأمر كذلك مع الرجال إذ يوردهم دون النساء ، نحو قوله تعالى :﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة : ٢٣) ، فمع ان الخطاب هنا متخصص بالذكور إلا ان الداخلين لا يقتصرون على الرجال وإنما يشمل النساء ، ولكن يبدو ان التخصيص بالرجال كون الدخول كان يحتاج الى الرجال لأنهم في مواجهة رجال شداد ، وهنا القرآن ترك توجيه الخطاب للنساء وقصره على الذكور كي يبين إنهن مرفوع عنهن عناء المواجهة والتصدي في المحاربة . وهذا تمكين لها كون عدم المجابهة يتلاءم مع بنيتها الجسمانية ، فهي لم تهيأ لخوض المخاطر .

ملخص الامر ان ذكر المرأة في موضع ما دون الرجل ، أو ذكر الرجل في موضع آخر دون المرأة ، يعود الى اختلاف السياقات القرآنية التي تحتم في الموضع الأول الاقتصار على ذكر الرجل دون الإناث ، وكذلك الأمر في الموضع الآخر الذي يحتم الاقتصار على ذكر النساء دون الرجال ، وان تخصص الخطاب بالمرأة مثلا أو بالرجل ، أو بكليهما يعود الى سياق السورة التي يرد فيها الخطاب ونوع الخطاب ضمن النص ، ولكل خطاب مما ذكرناه استعمال خاص في السياق القرآني العام ، فالعلاقة بين الانسجام والسياق في آيات الخطاب النسوي علاقة واضحة ومؤثرة في وضع المعنى[٦٣] .

الهوامش

[١] يُنْظَر : معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن احمد بن زكريا ابن فارس (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، د.ط ،١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م : ٥٦٣ .

[٢] يُنْظَر : علم الدلالة ، د.احمد مختار عمر : ٧٤ ، وينظر أيضا : وصف اللغة العربية دلاليا ، د.محمد يونس : ١٠٣ .

[٣] يُنْظَر : مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون – العدد الثالث ، مارس٢٠٠٠ ، بحث د.محمد حلمي هليل بعنوان (في طور التنفيذ معجم جديد للترجمة من العربية الى الانجليزية) : ٢٤٤ .

[٤] يُنْظَر : المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم – دراسة نظرية تطبيقية ، الباحث : حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني (أطروحة دكتوراه) ، جامعة الأزهر – القاهرة ،٢٠٠٧م : ٢٩ .

[٥] يُنْظَر : المصاحبة في التعبير اللغوي ، د. محمد حسن عبد العزيز ، القاهرة – مصر ، دار الفكر العربي: ١١ .

[٦] يُنْظَر : مدخل الى علم اللغة ، د. محمود فهمي حجازي : ١٥٩ .

[٧] يُنْظَر : المصاحبة في التعبير اللغوي ، د. محمد حسن عبد العزيز: ٣٤ .

(٨) يُنْظَر : المصاحبة في التعبير اللغوي، د. محمد حسن عبد العزيز : ٦٠ .

(٩) اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، ١٩٧٩م : ٢١٧ .

(١٠) يُنْظَر : الدلالة والنحو ، د. صلاح الدين صالح حسين ، توزيع مكتبة الآداب ، ط١ ، ٢٠٠٥م : ٢٥٧ .

(١١) يُنْظَر : المصاحبة في التعبير اللغوي ، د. محمد حسن عبد العزيز : ١١ – ١٣ .

(١٢) يُنْظَر : المصاحبة في التعبير اللغوي ، د. محمد حسن عبد العزيز : ١١ وما بعدها .

(١٣) يُنْظَر : البيان في روائع القرآن _ دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني _ ، الدكتور تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة – مصر ، ط١ ، ١٩٩٣م ، : ٢١٥ .

(١٤) يُنْظَر : صناعة المعجم الحديث ، د. احمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٩٩٨م : ١٣٤ .

(١٥) يُنْظَر : معجم التعريفات ، العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ) ، تحقيق ودراسة : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير ، القاهرة – مصر ، د.ط : ٥٧٨ – ٥٧٩ .

(١٦) يُنْظَر : الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسين الكفوي (ت١٠٩٤هـ) ، قابله على نسخة خطية واعده للطبع ووضع فهارسه : د. عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت – لبنان ، ط٢ ، ١٩٩٨م : ٩٦٣ .

(١٧) يُنْظَر : التحليل الدلالي – إجراءاته ومناهجه ، د. كريم زكي حسام الدين، د.ط ، د.ت : ٣٦ .

(١٨) يُنْظَر : دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، د. عبد الفتاح عبد العليم البركاوي ، دار المنار ، القاهرة – مصر ، ط١ ، ١٩٩١م : ٥٣ .

(١٩) يُنْظَر : التحليل الدلالي – إجراءاته ومناهجه ، د. كريم زكي حسام الدين: ٣٧ .

(٢٠) يُنْظَر : دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، د. عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: ٥٣ .

(٢١) يُنْظَر : التحليل الدلالي – إجراءاته ومناهجه ، د. كريم زكي حسام الدين : ٣٧ .

(٢٢) الدلالة والنحو ، د. صلاح الدين صالح حسنين : ١٣٨ .

(٢٣) يُنْظَر : صناعة المعجم الحديث، د. احمد مختار عمر : ١٣٤ .

(٢٤) يُنْظَر : علم الدلالة ، احمد مختار عمر : ١٨٣ .

(٢٥) يُنْظَر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، صيدا – بيروت ،١٩٩٠م : ٣٦ .

(٢٦) يُنْظَر : مجمع البيان في تفسير القرآن ، أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي : ٣ / ٣٩ .

(٢٧) يُنْظَر : المصاحبة في التعبير اللغوي ، د. محمد حسن عبد العزيز: ٥٢ – ٥٣ .

(٢٨) يُنْظَر : التعبير الاصطلاحي ، كريم زكي حسام الدين ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة – مصر ، ١٩٨٥م : ٢٤ .

(٢٩) يُنْظَر : دراسات في علم اللغة ، الدكتور كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر ، ، د.ط ، ١٩٩٨م : ١٣ .

(٣٠) يُنْظَر : أصول تراثيه في علم اللغة ، د. كريم زكي حسام الدين ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٨٥م : ٢٣٢ .

(٣١) يُنْظَر : المعجم العربي – بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، د. رياض زكي قاسم ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٧م : ٢٥٤ .

(٣٢) يُنْظَر : لغة القانون في ضوء علم لغة النص – دراسة في التماسك النصي ، سعيد فيومي : ٤٢٥ .

(٣٣) يُنْظَر : علم لغة النص –المفاهيم والاتجاهات ، الدكتور سعيد حسن بحيري ، مكتبة لبنان ناشرون – الشركة المصرية العالمية للنشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٧م : ١١٠ .

(٣٤) يُنْظَر: معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن احمد بن زكريا ابن فارس (ت٣٩٥هـ) : ٦ / ١٠٥ .

[٣٥] يُنْظَر : المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني ، الدكتور محمد سعيد البوطي ، دار الفكر ، دمشق – سوريا : ١٠٦ – ١٠٧ .

[٣٦] يُنْظَر : تفسير المنار (تفسير القران الحكيم) ، السيد محمد رشيد رضا ، دار المنار ، القاهرة – مصر ، ط٢ ، ١٩٤٧م : ٤ / ٤٠٦ .

[٣٧] يُنْظَر : تفسير التحرير والتنوير ، سماحة الأستاذ العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط١ ، ١٩٨٤م : ٤ / ٢٥٧ .

[٣٨] دلالات التَّقْدِيم والتَّأخِير في القرآن الكريم – دراسة تحليلية ، تقديم : الدكتور عبد العظيم المطعني (أستاذ بجامعة الأزهر) والدكتور علي جمعة (مفتي الديار المصرية) ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ٢٠٠٥م : ٢٨٧ .

[٣٩] يُنْظَر : تفسير المنار(تفسير القران الحكيم) ، السيد محمد رشيد رضا : ٤ / ٤١٨ – ٤١٩ .

[٤٠] يُنْظَر : دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم– دراسة تحليلية ، تقديم : الدكتور عبد العظيم المطعني (أستاذ بجامعة الأزهر) والدكتور علي جمعة (مفتي الديار المصرية) : ٢٨٨ .

[٤١] يُنْظَر : تفسير التحرير والتنوير ، سماحة الأستاذ العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : ٤ / ٢٥٧ .

[٤٢] يُنْظَر : الفروق اللغوية ، الإمام الأديب اللغوي أبو هلال العسكري احد أعلام القرن الرابع الهجري ،حققه وعلق عليه : محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة ، القاهرة – مصر: ٢٨٢ – ٢٨٣ .

[٤٣] يُنْظَر : التفسير الكاشف ،محمد جواد مغنية ، دار الأنوار ، بيروت – لبنان ، ط٤ ، د.ت : ٦ / ٥٠٧ .

[٤٤] يُنْظَر : المصاحبة في التعبير اللغوي ، د. محمد حسن عبد العزيز : ١١ .

[٤٥] يُنْظَر : صناعة المعجم الحديث ، د. احمد مختار عمر : ١٣٥ .

[٤٦] يُنْظَر : التفسير الكاشف ، محمد جواد مغنية : ٥ / ٣١١ .

[٤٧] يُنْظَر : اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان: ٢١٢ – ٢١٣ .

[٤٨] يُنْظَر : البيان في روائع القرآن _ دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني _ ، الدكتور تمام حسان: ١ / ٩٠ .

[٤٩] يُنْظَر : التفسير الكشاف ، محمد جواد مغنية : ١٢٤ .

[٥٠] يُنْظَر : مجمع البيان في تفسير القرآن ، أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي : ٩ / ١٧٦ .

[٥١] يُنْظَر : تفسيرالشعراوي ، فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ، راجعه وخرج أحاديثه : الأستاذ الدكتور : احمد عمر هاشم (نائب رئيس جامعة الأزهر) ، مطبعة أخبار اليوم – قطاع الثقافة والكتب والمكتبات ، ١٩٩١م : ٤ / ١٩٨٥.

[٥٢] يُنْظَر : الكتاب ، سيبويه : ١ / ٧٤ – ٧٥ .

[٥٣] يُنْظَر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك لقاضي القضاة بهاء الدين عبد الله ابن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت٧٦٩هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد: ٢٣٨ . ويُنْظَر : الأساليب الإنشائية في النحو العربي ، عبد السلام محمد هارون : ١٠٦ .

[٥٤] يُنْظَر : التحليل الدلالي– إجراءاته ومناهجه ، د. كريم زكي حسام الدين : ١ / ٣٦ .

[٥٥] يُنْظَر : تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ) ، أخرجه واعتنى به :خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ط٣ ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م : ١ / ٥٥٠

[٥٦] يُنْظَر : الدلالة والنحو ، د. صلاح الدين صالح حسنين : ٨١ – ٨٢ .

[٥٧] يُنْظَر : دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، د. عبد الفتاح عبد العليم البركاوي : ٥٣ .

[٥٨] يُنْظَر : مجمع البيان في تفسير القرآن ، أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي : ٥ / ٦٦ .

[٥٩] يُنْظَر : مجمع البيان في تفسير القرآن ، أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: ٥ / ٦٨ .

[٦٠] يُنْظَر : حوار عن الأسرة وقضايا المرأة ، سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) ، تحقيق ونشر : مركز العصر للثقافة والنشر ، ط٢ ، ٢٠١٩م : ٩ .

[٦١] يُنْظَر : الميزان في تفسير القرآن ، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (قدس سره) ، (منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة) : ١٤ / ٢٢٠ – ٢٢١ .

[٦٢] يُنْظَر : لغة القانون في ضوء علم لغة النص – دراسة في التماسك النصي ، سعيد احمد بيومي : ٤١٥ .

[٦٣] يُنْظَر : النص والسياق – استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، فان دايك ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، مكتبة أفريقيا الشرق ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠م : ٢٥٨ .